عودة آدم

عبد الرحيم الخصار

شعر

براءات المتوسط

2018

"قد يكون هذا العالم جحيمَ عالمٍ آخر".

ألدوس هكسلي

أنا آدم

أول رجل على هذه الأرض

أومأ للشمس وناداها باسمها.

ربما دبّ غيري هنا

لكني لم أجد أثرا

لمن قدماه تشبهان قدميّ.

كان بمكنتي أن أبقى هناك

لكن يدي طالت شرك التفاح

ليست ريحا تلك التي عصفت

بالأشجار حين نزلتُ

إنها أنفاسي

أنفاس رجل شلّ الندمُ قدميه.

هذه المياه أُريدَ لها أن تمر

في الأراضي الأخرى

هذه المناديلُ لم تكن لتجففَ شجنَ أحد

أما يدي التي ظننتُ أنها غصنٌ في جسدي

فقد صارت غصنا في جسد آخر.

ما زالت رائحة التراب في أنفي

الحسرةُ أهرشها

ما بين السّاعد والكتف

أما عينايَ فيسيل منهما

حنيني إلى الملائكة.

كان الغبار كثيفا

فلم أتبين موطئَ أفكاري

رأسي يضجّ بالكلمات التي طفقتْ

حواسّي تتلمّسُ لها المعنى

وما من شيء على الأرض

لأشبّهَ به هذا التيهان.

لم يكن لي صديق أو نديم بعد

صادقتُ التراب والحجر

جربت أن أحلّق مثل طائر

أو أجدّف مثل سمكة

فلم تسعفني ذراعاي.

لم أضع يدا في كهف

ولا قدما في غدير

لم أراوح ظلَّ هذه الصخرة

رفعتُ عينيّ إلى كوكب بعيد

فعرفت أن تعاقب الليل والنهار

هو سرّ المحن

ستمرّ القرون تباعا

سيحرثُ أحفادي هذه الأرض

وسيجْنون نهايةَ كل صيف

غلالا من التعب.

أسندتُ منكبي لجدع شجرة

و جلستُ أصغي للريح

ماذا تقولُ هذه السيدة

التي سبقتْني إلى الأرض؟

في نحيبها سمعتُ نحيب الآخرين

وتعالت أصوات كثيرة بداخلي:

بكاءُ طفل بلا بيت بلا سرير

ندمُ كهل تخلّى عنه الحظ

صراخ عبد يسوطه عبدٌ آخر

أنينُ يدٍ تتوسل ليد تصدّ

خفقُ جناح أثقلته التعاسة

نواح ناي بين شفتين حائرتين

خرير الماء يمر في قلب رجل مخذول

عويلُ نساء وأنا لا أعرف السبب.

أغمضتُ عيني

فمرقتِ الريح بنحيبها

ومن غصنٍ في الشجرة

سقطتْ دمعةٌ كبيرة على الأرض.

قلتُ للطائر الذي حطّ على مقربة مني:

"إن الشفاه التي تبتسم في النهار

تتحسر في الليل

إن اليد التي تغدو موجا

حين تلامس اليدَ الأخرى

تتخشب حين تغيب

إن الدمعة التي أسالها الفرح

هي الدمعةُ التي سيُسيلها الحداد".

قال الطائر:

"هل تغنّي لي

أم تغني لوحدتك؟"

هذه الأرض

ربما كانت عِقابا

ربما كانت غنيمةً حربٍ لم أخُضها

هذه الأرض ستشيخ

وستغادر مكانها يوما ما

سيمرّ الزمن مثلما تمرّ

الأشياءُ الصغيرة مع الريح

وسنلمح النهايةً برهةً قبل السقوط

مثلما تلمح الأرنبَ التائهَ عينُ الحدأة.

يدٌ ما سوف تعلَق في غصن شجرة

قدمٌ صغيرة سوف تتعثّر

في جسر الخشب

عينٌ ما سيسيل دمعها في عين أخرى

غير أن كل شيء سيمضي

سيجرف النهر الهادر كل نأمة

كلَّ خطوة خطوناها باتجاه بعضنا

كلَّ تنهيدة تركناها على قارعة الطريق.

سيطوي الزمنُ هذه الحياةَ سريعا

ويضعها في صندوق.

كنتُ أتعقب الأحلام في منامي

بينما تتعقبني الكوابيس.

عزلتي تشبه عزلة ديناصور

كلانا يمشي على طرفين

غير أن رأسَه أقربُ إلى الغيمة

يجرّ ذيله من وادٍ إلى واد

جانحا إلى الهضاب التي تخفي الشمس

يجثو قليلا ثم يدبٌّ بمفرده

يمر أمامي ناظرا إليّ بعطف

كما لو أني غصنٌ سقط من شجرة.

ومشيتُ في الأدغال

حتى بدا لي جسدٌ يشبه جسدي

ثم سقطت ثمارٌ وتفجّرت ينابيع

وخفقت طيور فوق رأسَيْنا

فأخفينا الخجل بالريش

وأوراقِ الشجر.

أغمضتُ عينيّ قليلا

فمرّتِ القرون تباعا

كما لو أنها قطيعٌ من الأبقار البريّة

تتدافع متعجلة لتغرق في النهر.

أغمضتُ عينيّ هناك

و فتحتهما هنا.

كأنّ يدا امتدت إلى قلبي

وأضافتْ إلى ناره نيرانا أخرى

كأن ضوءاً مرق من أمامي

وخلّف ركاما من الشظايا.

ما أراه الآن لم يكن ليُرى

وما أسمعه هو رنين كلماتٍ

كنتُ أجهلها.

كما لو أني رجل دخل كهفا

ثم سقط من سحابة.

دون أن أدري

وبما يفوق المعجزة

وجدت نفسي

أحرّك القهوة في فنجان

بملعقة صغيرة وبيضاء

أمام تمثال لرجلٍ مات في الحرب

على طاولتي مفاتيحُ وكتاب

وبجانبي مِظلّة.

كانت امرأةٌ

تفرِش ثوبا رثًّا لرضيعها

وتمدّ يدها للسابلة

لنساء ورجال يمرّون

متعجلين بربطاتِ عنق

بمحافظَ من جلد

وبعيون شبهِ مغمضمة.

ساعدٌ يرتطم بساعد

سيقان تتردّى في الضباب

جباهٌ محنية باتجاه النسيان

عيون لا تنظر إلى بعضها

وشفاهٌ زمّها الخوف من الهواء.

كانت نظرةُ المرأة

مثل زجاج تكسّر للتو.

أما الطفلُ فكان غصنا

في غابة ثلج.

الأنفاسُ تتداعى

وأعقاب الأحذية تقرع الأرض

كأنها تنذر بحرب.

تمّر الحشودُ أمامي

ويمرّ معها الرصيف

ثم تختفي فجأة كما لو أن أحدا لم يمرّ

تخلو الساحة ممن غمروها بالظلال

ممن زرعوا فيها الجلبة

وشيئا فشيئا تتلاشى أصواتهم

يتلاشى حفيف المعاطف والقبعات.

في عهدي لم تكن ثمة
امرأة تمدّ يدها للعابرين
لم تكن ثمة يدٌ فوق يد.

لم تكن ثمة يدٌ جرّحتها الأيام
ويدٌ ناعمة غطّاها الذهب.
كانت أيدينا تشبه بعضها
في الصيف تبدو
كما لو أنها لحاءُ شجرة
وفي الشتاء تصير غيمةً
ويسقط منها المطر.

على الشاشة في المقهى

كانت القنابل تسقط

على رؤوس أحفادي

فيما الجالسون حولي يزرعون أبصارهم

في هاتفٍ أو جريدة

يثرثرون حول المدافئ التي تعطّلتْ

وطلاءِ الأظافر والقطط المريضة.

الحربُ التي ترجّ العالمَ الآن
دون طبول ورايات
بدأتْ بصخرة.
كان قابيلُ واحدا
ألقى الندمَ في بئرٍ
ومضى
لكنّ الصخور ظلت تسقط تباعا
على جماجم العصور.

الأنبياء الذين جاؤوا بعدي
كانوا يرفعون أيديهم إلى السماء
كي يصير العالم أكثر شساعة
غير أنّ الصّوان كان يدفع جدرانا
لتضيق ببعضها
ويغلق على الحالمين كلَّ منفذ.

هذا العالم انهار مرارا

وكنتُ أغمض عينيَّ في السماوات

كلّما تناهى إلى مسمعي

صوت ارتطامه بنيزك

وأتمتمُ حين يسجو الليل

كي تعودَ الروح إلى طيوره الميتة.

أدهشتني المصاعدُ في العمارات

والقطاراتُ التي تعدو

على قضبان الحديد

أدهشتني الواجهات الزجاجية

التي يلمع فيها الليل

والقنطرةُ التي تحضن الشارع

وتحنو عليه

أدهشتني الطائرة التي تجاري الغيمة

والهاتف الصغير

الذي يخبئ أسرار العالم

أدهشني الرجل الأنيقُ

الذي يرقص التانغو

والمرأة الجميلة

التي تجلس إلى أطباق ملونة

بشوكة وسكين.

أدهشتني انحناءةُ الممثلين

في نهاية المسرح

أحذيةُ الراقصين على الجليد

رفوفُ الكتب

التماثيلُ في الساحات

الشاشاتُ التي تنقل العالم

إلى قاعات صغيرة.

اللوحاتُ التي تعلق الجَمال على الجدران

الجدرانُ الصقيلة

والغُرف التي لا تعدّ

يدُ المايسترو

ترسم الشجنَ دوائرَ تتلاشى

قبعات العازفين على الساكسفون

فساتينُ السهرة

وأحذية الكعب العالي

الموسيقى والشهبُ التي تضيء السماء

في الليلة الأخيرة من كل عام.

أدهشني الضوء ومقاعد المدرّجات
الصوامعُ وأجراس الكنائس
استدارةُ المايكروفون في يد فتاة تشدو
ربطةُ عنق على شكل فراشة.
القبعات والتنانير
الكراسي المرصوصةُ على حافة النهر
الشرفاتُ ورسائل العشاق
الفساتين والعطور
الأشرعةُ التي تعبر البحر.

أدهشتني الأساورُ والأقراط

والشَّعر القصير

وحيدا في الريح

والكلمات الأنيقة التي تتهادى

بين لسان ولسان.

وأبكاني الترابُ على خدّ طفل

أخرجوه ليلا من تحت الحطام

أبكتني النيرانُ

التي ترعب ليلَ العالم

المدرعات التي تدوس الحشائشَ والبشر

رصاصاتُ الغدرِ

ورصاصات الوفاء

السكاكين التي تحز الأعناقَ

بلا سبب.

أبكتني الرّقابُ المدفوعة

قسرا إلى المقصلة

القنابل التي تسقط مع المطر

المدافعُ حين يقف خلفها جنودٌ عميان

الأوراقُ التي تحمل صور الملوك

وتحوّل المجرى من حقل إلى حقل

العيون وقد أعمتها مياه سوداء

اليدُ التي تكبّل يدا أخرى

القدم التي تطأ ظهرا مَحنيا

باتجاه وهمٍ ما

طوابيرُ الدّجل

الوحشُ الرابض في قلب العصفور

الأجساد التي تعدو معصوبة العينين

إلى جحيمها.

أبكاني الألم في الأراضي السمراء

حيثُ امرأةٌ تدفع ثديا شاحبا

إلى فم رضيعٍ توقّف عن الصراخ

وتتلمس في الديجور

عمرها الذي ضاع في الضوء

حيث رجل عجوزٌ

يدوس الأمل بعكازه

ويتقاسم الجيفةَ مع نسر

حيث الدمعة تتبخر قبل أن تسيل

والأنفاسُ تتوسل كي لا تفنى.

أيّ أرضٍ

هذه التي زلّت إليها قدماي؟

كنتُ رجلَ السماء الوحيد

أومئُ للضوء

فيغدو هضابا ووديانا تلمع

تهبّ أنفاسي على شجر الخلد فيزهر

أمدّ يدي حين أسهو

وأمسكُ بنجمة.

كنت أرعى بستانا من الأحلام

ثم خذلني التفاح.

وها أنا أحدق في الضوء الذي

يملأ عينيّ ظلاما

أحس بأطرافي وقد غُلّت

إلى أحجار ثقيلة

المللُ ينط من فناجيني

والقسوةُ بيديها الشاحبتين

هي من يمسح الغبار الذي

تراكم على الطاولة.

هادئٌ ورتيب

مثل دبٍّ في غرفة

مثل نهرٍ بلا أسماك.

بالقليل من الأمل
أدفعُ في منحدر الماء
أكوابَ الشموع العائمة.

لماذا تتداعى الألوان أمام عينيَّ

ويصير لمقبض الباب لونُ العدم؟

لماذا يفضي باب الحديقة إلى مقبرة

وتنتهي النوافذ إلى دخان؟

لماذا يلمع الظلام في طريقي

وينهالُ عليّ التراب بدلَ المطر؟

إلى أين تمضي أيها العالم

وأنا الأبُ الأوَّلُ لكل هذا الأبد؟

لا أحد هنا ينتبه إلى القمر

كل عابر عيناهُ مشدودتان إلى الأرض

أو إلى عينَيْ عابر آخر.

كما لو أني صيادُ كلمات

واقفا على قدم واحدة

و مشدودا مثل قوس

رميتُ السهم في الدريئة

كل ما رأت عيناي مرق في الهواء

أودعت أسراري للجوارير

حيث الظلمةُ تمحو أثرا كان

حيث أرضَةٌ تلتهم ما تبقى من الورق.

كنت أصعد أدراج بنايةٍ

على طرف المدينة

وكانت الحيرة تصعد الأدراج معي.

عجزَةٌ يرتجفون من البرد والنسيان

وأطفالٌ يعانقون جراء نائمة.

من معبد قديم

وصل إلى قلبي نشيد مُقدّس

الصغيراتُ اللواتي كنّ يرفعن

أصواتهن في ساحة الكنيسة

كنّ أيضا يرفعن قلبي

إلى سماءِ الموسيقى

إلى لوحةٍ في السقف

يتوسّطها ملاك.

أنظرُ إلى حيث لا يرى الآخرون شيئا

فيمرّ الأحفاد تباعا أمامي:

موسى وقد شقّ البحرَ بعصاه

ثم لم يتبعه أحد

يعقوب حين أعاد القميصُ

النورَ إلى عينيه

نوح وهو يضع العالم في سفينة

أديسون الذي أنار الكوكب ومضى

جوبا بعد أن سقطت نوميديا

من بين يديه

كوبرنيك يقلّب صفحاتٍ

من ثورة الأفلاك السماوية

غاندي ينسج رداءه بيده

ثم يَعْبر بالناس جسورَ الضوء

أدولف هتلر بشاربه المقطوع

ربما كان يرغب

في أن يقود العالم إلى المقصلة

كوسطو الذي زرع الأسماك في الحدائق

وتيريزا التي مسحت

بثوبها الأبيض دموعَ العالم

المعرّي مغمضَ العينين

يتطلع إلى شمس أخرى

وكوكبٍ لا سوادَ فيه

الرومي الذي أدار ظهره للصخرة

ورقص

الرسولُ الذي رعى الأغنام

وفي طريقه بالعطشى إلى الماء

أدْمتِ الحجارة قدميه.

المسيحُ أو ظلّه

وقد دُقت يداه بمسمارين إلى خشبة

الجاحظ نائما بين الكتب

ديوجين وقد سقط المصباح من يده

سافو تنادم الملكَ الضليل

الخيام مخمورا بكلماته في الصحراء.

يمرّ الشحاذون والعمال والمتسولون

باعة الأزهار وجالبو الحظ

العطارون والعرافون والرعاة

رافعو الآذان وقارعو الأجراس

الشعراء والخطباء وسَدَنة المعابد

الربابنةُ وسعاة البريد

المهربون وقطاع الطرق

الرقيقُ وتجّار الرقيق

الصقّالون والشّماسون وسائسو الخيول

النسّاخون وباعةُ الكتب

الحصّادون وحفّارو الآبار

المبشّرون والزبانية

الجلادون والسجناء

المعلمون والقضاة

الحكماء والسقاة وقطاع الطرق

البيزنطيون يدفعون إلى الماء

سُفنَهم التي من خشب

الرومان يزدحمون في حلبةِ صراع

الأمازيغ وقد اعتصموا بالجبل

الهنود بِتيجانِ الريش

الصقالبةُ يبحثون

عن مجدهم الذي ضاع

الموريسكيون وقد خرجوا من جنة

لم تكن لهم

البويبلو الذين أبادهم الذهب

الحُجّاج يطوفون بالحجر الأسود

البوذيون وقد تحلّقوا حول نارهم

الرجال الذين يتحسرون

أمام حائط المبكى.

تصطكُّ الكلمات بين شفتين حارَتا

وفي العينين تلمع أفكار غريبة.

أنظر إلى وجهي في المرآة

وينظر وجهي إليّ

ثم يسحبنا معاً دُوارُ الأيام

عابرَيْن غريبيْن في سفينة

والملاّحُ الوحيد الذي سيجدّف بنا

هو النسيان.

كما لو أني أجلس

حيث لا أحدَ جلس

وأقف حيث لا يستوي الوقوف.

يمتد سُلَّم طويل في أرجائي

وأتدلى عبره إلى غدرانٍ منسية

لم يرها أحدٌ سواي.

أجلو الضباب بيدين راجفتين

ثم أفتح عينيّ على مياه قديمة

رَجَّها الندم.

كما لو أني أمام راهبٍ

أُدلي باعترافي الأخير.

عسيرةً

تخرج الكلمات

كأن يدا تمتدّ لتسحبها.

ربما كان أولى للمرايا

أن تكون أصفى

وللعيون أن تُديمَ النّظر

ربما كان أولى للأرواح

أن ترأف بأجساد أنهكتها الطريق

ولأعمدة الكهرباء الكثيفة أن تتوارى

كي لا تحجبَ نجوما بعيدة عن عيني

ربما كان أولى للألم

أن يهدأ قليلا

وللأفكار التي تشبه الشمس

أن تفلت من شراك الليل

ربما كان أولى ليد السماء

أن تحنو أكثر

وهي تربّت على شَعر العالم.

ما الذي سيجري

إن لم يكن قد جرى؟

لا شيءَ تقريبا، لا شيء

سندبّ قليلا على هذه الأرض

ثم بغتةً سيأتي الموت

ليرفعنا من سماء إلى سماء.

لم أجلب ماءً من بئر

ولم أوقد نارا في غابة

فقط جثوتُ

أمام مدفأة معطلة

ورجوت الثلوج أن تتأخر قليلا

أو تنزاح من الطريق

إن كان ثمة طريق

كي تخرجَ من كوخها الخشبيّ

هذه الأيامُ البردانة.

أنا الطيّان السكران

الذي يتشقق الخزف في مواقده

ترتعش يداه وما من حيلة.

كل خفقةٍ على طاولته ماء

كل ظل يتراجفُ أمام بابه آنية.

ربما لم يتبقّ الكثيرُ من الوقت

في الساعة الرمليةِ العظيمة

قد تندلع نارٌ في بيدر

أو يفيضُ بركان

قد تتدانى الجبال من بعضها

أو يحتدّ غضبُ الرعد في السماء.

قد يمرّ إعصار من ضيعة

أوتتشابكُ البروق.

قد تجنّ القطارات والجسور

ويرجّ الزلزال ليلَ المتعبين.

قد تدنو الشمس كثيرا

أو يختفي الهواء.

قد يصهل البحر

مثل حصانٍ أبعدوه عن فرسه

ويصلُ الأرضَ أنينُه

ماءً فوق ماء.

قد تجرف السيولُ أحلامَنا

أو يصدمنا نيزكٌ شارد في العتمة.

قد تخسف بنا الحقول

وتغوص أقدامنا في الغدران.

قد تتخاطفنا الحِداء

أو تلتهمنا التنانين.

سننتهي سننتهي

كما لو أننا لم نكن

كما لو أن القرونَ سُعال

كما لو أن هذا الكوكبَ

ضربةُ فرشاةٍ

سيمحوها المطر.

حين تتسع الثقوب

في هذا المركب الذي يقلّنا

لن ينفع مجداف ولا صارٍ ولا شراع

ولا يدٌ تمتد ليد.

سنحدّق في الموج قليلا

وننادي الشمس فلا تسمعنا

حينها سنغمض عيوننا

في الهدأة الأخيرة

ثم نختفي.

وها أنا

وقد أسبلَ الضبابُ جفوني

أفتحهما بين الغبطة والندم

وأنظرُ إلى العالم

مثلما ينظر أبٌ إلى ابنه العاق

ماذا لو صرفتُ نظري

عن فكرة الأبناء؟

ربما كانت الحياة حياةً أخرى

ربما طالتِ الأعشابُ

وصارت أشجارا

ربما ظلت المياه أصفى.

أحرك القهوة في الفنجان

وأستلذ الرشفة الباردة

أومئ للزمن كي يمرّ

أغلق الكتاب وأفتح المظلة

أضع القبعة على رأسي

وأسير إلى حيث لا مكان

قدمٌ على الرصيف

وأخرى فوق أكمة

وفي طريقي التي تنتهي

لتبدأ بعدها طريق

سأخلط الأملَ بالماء

وأدهنُ الجدران.

الغلاف الخلفي:

أنا آدم

أول رجل على هذه الأرض

أومأ للشمس وناداها باسمها.

ربما دبّ غيري هنا

لكني لم أجد أثرا

لمن قدماه تشبهان قدميّ.

كان بمكنتي أن أبقى هناك

لكن يدي طالت شرك التفاح

ليست ريحا تلك التي عصفت

بالأشجار حين نزلتُ

إنها أنفاسي

أنفاس رجل شلّ الندمُ قدميه.

ملحق

سيرة مختصرة للشاعر

- عبد الرحيم الخصار

شاعر وكاتب مغربي

- صدر له:

- أخيرا وصل الشتاء، شعر وزارة الثقافة المغربية ٢٠٠٤

- أنظر و أكتفي بالنظر، شعر ، دار الحرف للنشر والتوزيع بالمغرب ٢٠٠٧

- نيران صديقة، شعر، دار النهضة لبنان ٢٠٠٩

- بيت بعيد، شعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة إبداع عربي. القاهرة. 2013

- خريف فرجينيا، رحلات إلى أمريكا وأوروبا، كراس المتوحد، المغرب2017 .

تصدر نسخته الفرنسية قريبا عن دار نشر Les infrequentables بترجمة المغربي محمد حمودان المقيم في فرنسا.

- عودة آدم، شعر، دار المتوسط، إيطاليا 2018

وله عدد من المؤلفات المشتركة حول رموز الثقافة في المغرب والعالم العربي.

- تم اختياره سنة 2010 من لدن منظمة هاي فيستفال البريطانية ضمن تظاهرة بيروت٣٩ لأفضل ٣٩ كاتبا عربيا دون سن الأربعين. الكاتب العام لفرع اتحاد كتاب المغرب بمدينة آسفي (أعلن استقالته من الاتحاد سنة 2015). كاتب بالقسم الثقافي للصحافة اللبنانية (النهار ثم السفير ثم الأخبار). شارك في ملتقيات عديدة بالعالم العربي وأوروبا وأمريكا، حصل على جائزة بلند الحيدري بمنتدى أصيلة الدولي سنة 2011. حصل على ثلاث منح لإقامات أدبية في الولايات المتحدة

الأمريكية (كاليفورنيا- فرجينيا- إلينوي).

- ترجمت نصوصه إلى عدد من اللغات: الفرنسية، الانجليزية، الألمانية، السويدية، الاسبانية.